

المدخل

- 1 -

إنَّ دراسة النص الأدبي لا تقف عند جانب أحادي التناول؛ أى بالاعتماد على النص وحده منفردًا، إنَّ ذلك يُعدُّ بترًا واضحًا لعلائق النص، تلك العلائق التي تُشكِّل نسجه، وبالتالي تُشكِّل دلالاته المقصودة عند الشاعر، فالكلمة - كما يقول دى سوسير - لا تقف وحدها، حيث لا وجود مطلقًا لكيانها منفردة وحيدة، فهي ليست إلَّا كيانًا متواصلًا مع كيانات أخرى، والأديب (المبدع) لا يقف وحده - إذن - لأنه تواصل ابداعي متعدّد لا تسير خطاه إلَّا منطلقًا من خطى أخرى، وقد يقع حافره على حافر غيره تمامًا؛ كما يقول ابن الأثير. إنَّ هذه الخطى لا تقف وحدها، فهي مسافات تواصلية قد سبقت بخطوات أخرى من ذى قبل.

- 2 -

والناظر - بإمعان - إلى أمشاج النص الأدبي يعرف أن هذه الأمشاج ليست إلَّا جوانب «سيمولوجية» لفحص النص نفسه، فهي علامات دالة على علاقات متشعبة لنصوصٍ أخرى، بل ولأجناسٍ أخرى متعددة. ومن هنا اتجهت الدراسات النقدية الحديثة إلى اختراق ميادين علمية متعددة لتسحب مصطلحاتها، بل ومناهجها، وكذلك ميادينها إلى ميادين ومساحات الدراسة الأدبية، وتدخل الجيولوجيا - بقوة - إلى تلك الساحة الأدبية مصطحبة معها مصطلحات ومناهج جديدة، فكان الحديث عن جيولوجيا النص الذى سحبه (بارت) من مجاله إلى المجال التشريحي للنص الأدبي، من حيث درس مكونات النص وطبقاته المختلفة المتعددة. فذهب الدرس النقدى يعتمد على خطوات جيولوجية لفهم النص وتحليله، كما يفعل ذلك عالم الجيولوجيا فى فحص ودراسة العينة الأرضية.

وبذلك يظهر مصطلح «العينة» فارضاً نفسه بكل قوة على الساحة الأدبية ذاتها، فكانت (جوليا كرستينا) أول من لمحّه، وجاء به إلى الدرس النقدي.

امتدت الأيدي لتأخذ مصطلحات جيولوجية أخرى؛ فكان تعبير «الرسوبيات» النصية الذي تحمس له (جاك دريدا) كثيراً.

- 3 -

وعند دراستنا للنص الأدبي - تحليلاً - فليس أمامنا من بُدّ في أن نستخدم هذه التقنية المائزة، تلك التقنية التي تستمد كيائها من ميادين العلوم الحديثة، حيث تنطلق الخطوات التحليلية عامدة إلى كشف ذرّات النص البعيدة الصفر، وربطها بكياناتٍ أخرى ليعمّق وجودها، ويعلم جذورها، وتأخذ هذه العملية «الدينامية» مصطلح التناص؛ الذي يحمل معاني التقاطعات النصوصية الأخرى، حيث تولّد هذه التقاطعات عناصر متراكبة من معادن شتّى، وعندما سحب الدرس الجيولوجي على النص الأدبي فإنه يجب - حينئذٍ - أن يسحب بكل أبعاده وعلومه وديناميته.. فعندما سحب (بارت ودريدا) هذا المصطلح «الجيولوجي» إلى تشرحية النص فإن ذلك يعنى دمج علوم دراسة القشرة الأرضية بعلوم التراكيب الجيولوجية ليمتد ميدان الدراسة فيها. وليس قول (جاك دريدا) عن رسوبيات النص إلّا دليلاً قاطعاً على وجوب درس علوم «الجيولوجيا» بكل ميادينها، وسحب هذه العلوم على الدرس النصّي.

وكلمة «جيولوجيا» نفسها تعنى: علم الأرض؛ حيث تتكون من مقطعين «جيو» المشتق من «جيا gea»؛ وتعنى: الأرض... و«لوجيا» من كلمة «لوغوس logos»؛ ومعناها: علم أو منطق... فالجيولوجيا تعنى: علم الأرض⁽¹⁾. وبالطبع فإن لكل علم منهجه المنضبط، وكذلك موادّه العلمية، وبالربط بين «الجيولوجيا» بهذا المفهوم وبين ما عُرف بـ«جيولوجيا النص»، فإن الدرس التشرحي سيأخذ مجالات جديدة متسعة، ولكن العلوم «الجيولوجية» تكثُر، بل

(1) محمد حسين حسين؛ أساسيات علم الجيولوجيا، مركز الكتب الأردني، 1990م، ص 12.

وتتشعب تشعباً دقيقاً؛ فهناك علم «البللورات crystallogy»؛ والذي يدرس ترتيب الذرات في المواد الصلبة⁽¹⁾. وهذا الأمر يُشبه درس النظام أو النظم الذي يُشير إليه (عبد القاهر الجرجاني)؛ حيث العناية بالسياق والتركييب والتتابع. فالمواد المدروسة في هذا العلم هي النصوص «بالنسبة للدرس الأدبي» وموادها من حيث الإبداع. ويهتم علم «الصخور petrology» بدراسة الصخور التي تتكوّن من معادن، ولهذا العلم جانبان؛ الأول: وصفي؛ ويهتم بمعرفة الصخور وتصنيفها، والثاني: تفسيري. ويهتم بنشأة الصخور.

وهذا التقسيم الثنائي يتقابل تماماً مع درس اللغة أو علم اللغة من حيث العناية بدراسة اللغة بشكلها الوصفي أولاً، ثم دراستها درساً تفسيرياً، حيث الدرس الأدبي لتكوين اللغة، ولذلك انطلق (موكاروفسكي) معتنياً بدراسة اللغة من الجانبين: المعيارى والإبداعى.

وهذا الميدان من أهم ميادين الدرس التناسي؛ فالتناص رؤية عملية لطبيعة تكوّن الأنساق وإبداعاتها.

وتمتد ميادين ومساحات الجيولوجيا مع مساحات الدرس الفيزيائي؛ وهذا ما حدا بكثير من النقاد المحدثين إلى الذهاب إلى علم الفيزياء ليأخذ منه القوانين والمصطلحات، ليشكّل بها نظريات خاصة للدرس التحليلي الأدبي، وهذا ما يبدو واضحاً وملحاً عند (كرياس) على - سبيل المثال -، فوجدنا مصطلحات التشاكل، والامتداد، والتكرار... وغيرها من المصطلحات الدالة على الحركة والمادة، وهما غاية الدرس الفيزيائي «الفيزياء هي دراسة المادة والحركة... كما تُشير إحدى تعريفاتها كذلك»⁽²⁾. ولكن الفيزياء رغم هذا التعريف المكثف مزيج من: الجهد الخلاق، والمعرفة المتراكمة، والأفكار الموحدة، والمعادلات الرياضية، والأثر الفلسفي، والتطبيق العملي⁽³⁾. وهذا أمر ينطبق على طبيعة الجهد المبذول في تحليل النص

(1) المرجع السابق؛ ص 12.

(2) كيث وفورد؛ الفيزياء الكلاسيكية والحديثة، ترجمة: همام غصيب وعين شاهين، الأردن،

1981م، ص 12.

(3) نفسه؛ ص 3.

الأدبي، حيث الانطلاق من «دينامية» خاصة تؤدي إلى درس النص بجوانب تحليلية قائمة على أسس علمية.

فدرس التناص يلتقى مع هذا الجهد الخلاق التقاءً واضحاً، فدرس النص حسب ما وُجدَ من جهود علمائه درس دقيق المسلك ينطلق من طبيعة تركيب البنية النصية، مستفيداً ومعتمداً على جيولوجية التركيب وفيزيائية الحركة.

وبحثنا هذا محاولة متواضعة لدرس تناص «جيولوجي» بين (أحمد شوقي) في قصيدته «مصابير الأيام» وبين (بدر شاكر السياب) في قصيدة «الأسلحة والأطفال». وقد جاء هذا البحث وفقاً للانطلاق التناصي في محورين؛ الأول: محور نظري تأصيلي، والثاني: محور تطبيقي عملي، ثم بعد ذلك المحصلات.